تمثل الذكريات بالنسبة إلى الشاعر الجاهلي رافدا من روافد الإلهام الشعري ، إذ أن الشاعر في كثير من الأحيان يغترف من هذا النبـــع الذي يمثل له خزينا وثروة شعرية- لا يمكـــن له مهما أوتي من شـــاعرية فذة أن يتجاوزه ويتخطاه- تغذي أفكاره وموضوعاته وصـــــوره الشعرية .

فالذكريات تمثل ماضي الشاعر، ذلك الماضي الذي طوته السنون والأيام ،غير انه ظـــل حيا في ذاكرته، يحاول الشاعر استرجاعه وعيش أيامه والتمتع بهـا وهـو يعيش حاضـــره المرير بكل تناقضاته وإفرازاته .

وعند تأملنا للشعر الجاهلي واستقرائنا المتأني والدقيق له ، وجدنا أن الذكرى ترد تارة فـــي موقف الأطلال ، وتارة أخرى في موقف الرحـــيل ، وتارة ثالثة ترد والشاعر يخوض تجربـة الشيخوخة ، وتارة رابعة في موقف الحزن والإحساس بالفقد ، وتارة خامسة ترد في الطيـــف ، وسنفصـــل الحديث في كـــل موقف من هذه المـواقـف بادئين بالذكـــرى في مـــــوقف الأطـــلال .

● الذكرى في موقف الأطلال :

تعد الأطلال من أقوى المثيرات للذكـــرى في نفس الشـــاعر الجاهلي وأعظمها تأثيرا عليه وتكمـن قوة تأثيرها على نفـــسه في كونها كانت فـي يوم ما تحتضـــن ذكرياته مع أحبتـــه ، وكونها لها القدرة المذهلة على إيقاظ هذه الذكريات بعد أن كانت هاجعة في ذاكرتـــــه ، وقد طواها الزمن ، وإذا بها تنبعث من جديد وإذا بالشـــاعر يعيش أيامها ويستغرق في التمتع بـها .

والأطلال بالنسبة للشاعر الجاهلـي هي ديار الحبيبة وديار الذكريات وهي قطـعة من ماضـيه العزيز الذي يثير في نفسه الشوق والحنين(١) وهي أيضا جزء مـــن حياتـه ، وهو حيـــن يقف عندها يستحضر ذكرياته ويسترجع أيام صباه ، فتثير فـــي نفسه ألوانا من الأسى والشـجو والحنين،فيندفع في مناجاة هذه الأطلال ومخاطبتها ووصـــف آثارها وتصور ما كان فيهـــا ، فهو في الحقيقة يعبر عن إحساسات صادقة وعواطـف صحيحة تملأ شعاب نفسه، والأطـــلال بالنسبة إليه تمثل الوطن المهجـور والأهل والصحب والأحبة... بل هي حياة عاشـــهـــــــا وذكريات عزيزة عليه ... أن الشـــــاعر حين يقف في هذه الأطلال المهجورة تفيض نفســـه بشتى العواطف ويمتلأ صـــدره بخلجات من المشاعر المبهمة وتغرورق عيناه بالدمـــوع ،

لمـــا تثيـره من ذكريـات(٢))فكل شيء في هذه الأطلال يذكره بماضــيه ، بذكريـــاته مـــع الحبيبة و الأهل و الأصحاب و الندمان ،((فالأرض تذكر بهم ، وحطــوبـات الولائد وآيـــات الدعـــس تستثير صورهم ، وبقايا النؤي المتهدم هي التي تحمل ماضيهم إلى هذا الحاضـــر وتبثه فيه)) ،(٣) وخلف كل شيء من هذه الأشياء حكاية للشاعر وذكرى .

وتتلون هذه الذكريات التي تثيرها الأطلال ، فمنها ما يتعلق بذكريات الشـــاعر مع حبيبتـه، وهو الغالب في الشعر الجاهلي كقول امرئ القيس في مطلع معلقته ، إذ يقــــول:(٤)

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بســـقط اللوى بين الدخـــول فحومـــل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نســـجتها مـــن جــنوب وشـــمأل

فالشاعر يستوقف صاحبيه ويدعوهما للبكاء معه على المحبوبة (٥) التي رحلت وخلّفـــت وراءهـــا قلبــا حزينا تعتصره الذكريات الأليمة ، ومما يلاحظ على الشاعر وهو يقف علـــى أطـــــلال محبوبته ، انـه يوجز في تجربته إيجازا شديدا إذ لايفصح عن طبيعـــــــــة هذه الذكريــــــــات ، ولايطلعنـــا على تفاصـــيل هذه الذكريات التي جمعته مع محبوبته فـي أيامه السالفة ، واكتفـى بذكر الأماكن التي هي بطبيعة الحال قطعة من نفسه ، ففيها عاش أيامـه الجميلة ، وفوق رمالهـا خلف قلبـــــه وشبابه ، فهي أماكـن غالية عليه ، حبيبة إلى نفســـه ، وهو لذلك وفـــيّ لهـــا ، متشبث بها ،(٦) ومن هنا نراه يعمد عمدا إلى تحديدها تحديدا دقيقـا ، ووصفها وصفا يشـــــي ببقائها ، ولعل السبب فـي هـذا الإيجاز يعود إلى حالته النفسيـــة المتأزمة وهو يسجل آهاتـــــه على مـــــاض غابر، رحل بأيامه ليظل سـاكنـا فـــــي وجدانه بما احتفظ به مـــــن ذكريات (٧) التي لاتسمح لـــــه بسرد هـذه الذكريـــــــــات والاسترسال فـي تفاصيلها ، وقد يكـون هنالك سبب آخر وراء هـــــذا الإيجاز الشـــديـــد الذي يعمد إليه الشاعر وهـــو حالـــــة النسيان – بسبب تقادم العهد بينه وبيـــن محبوبتـــه - التي ألمت بالشاعر وما تمخض عنها مـــن ضعف أصا ب ذاكرته مما لم يعد معـــــه تذكـر شيئا من تفاصـــيل هذه الذكريات . ولنتأمـــل ذكريـــات الحارث بن حلزة اليشكري وهـــــو يقف على أطلال محبوبتـــه أسماء في معلقتــــــه ، إذ يقول :(٨)

آذنتنا ببينهـــــا أسمــــاء رب ثاو يمل منه الثـواء

بعد عهد لنا ببرقة شـــــما ء فأدنى ديارها الخلصـاء

فالمحياة فالصـــفاح فأعنا ق فتاق فعاذب فالوفـــاء

فرياض القطا فأودية الشر بب فالشعبتان فالإبـــلاء

لا أرى من عهدت فيها فابكي اليوم دلها وما يحـــير البكـــاء

يقف الشاعر جزعا مهموما وهو يستحضر شريط ذكرياته ، إذ يقفز في ذاكرته ذلك الخبـــر المؤلم الذي تلقاه بحزن وجزع بالغين وهو إعلان ساعة الرحيل والفراق ، ثم يبدأ بذكـــــــــر المواضـــــــع العديدة التي شهدت ذكرياته معها ، موضعا موضعا وهو أيضا كامر ئ القيـــس لايفصح عن هذه الذكريات ولايذكر تفاصيلها ، ويبدو انه يستعيض عنها بهذا التكثيـــــــــف والتفصيل بذكر هـــــــذه المواضع ، لان في كل موضع من هذه المواضع له حكاية وذكـــرى ،((فحين نتأمل أبيات الشاعر ، نجد فيها إصرار على ذكر الأماكن التي تمثل موطـــــــــــن الذكريات ومراتع الهـــــوى ، ويتجول بنا الشاعر صاعدا إلى الهضاب تارة ، ونازلا بنا فجـأة إلى الشعاب والأودية ، ويبدو أن الشعراء في مثل هذا الموقف لايسعون إلى تكثيف الصـــــور الشعرية من خلال الوقوف علـــــى تحديد المواضع والأماكن ، بقدر ما يهدفون إلى إيهـــــام القارئ أو السامع بصدق تجاربهم وواقعيتها ، ومن ثمة يخبرنا الشاعر بأنه كان سخيـــا فـــي سكـــب الدموع مدرارا هياما واشتياقا إلى الحبيبـــة التي مثلت بالأمس فيضـــا من الحيـــــاة الســـــعيدة ، والذكريات العذبة ، وهي اليوم تمثل فيضا إلهاميا.))(٩)

وأهم ما يلفت نظرنا هنا أن الشاعر ((لاتستوقفه الديار الدارسة غير أن ما يستوقفه حقـــا هـو ذكرياته من خلال تلك الأماكن ، فهو يشير إلى المواضع التي تحمل في طياتها دلالـــــة الذكـــرى دون أن يطلعنا على ما أصابها من دمار وتخريب ، عساه يحتفظ بشيء أثمن وهـــو أن يظـــــل جمال الذكرى حيا في نفسه ، متحركا في وجدانه ، دون أن يشوه صورتـــه ، أو ينقـــص مـــن جماليته شيء .)) (١٠) كما يلفت نظرنا أيضا هذا التكثيـــف فـــــــــي هـــــــذه الفـــــاءات العاطفة التي يحـــاول الشاعر أن يربط بها هذه الأماكن فهي تمثـــل لفتة نفسيـــة بارعة يهـــدف الشاعر من ورائها إلى الفاتنا إلى أن هذه الأماكن – برغـــم تباعدها في الواقـع – متقاربة في نفسه ، لأنها تضـــم بيـن دفتيها مسرح الشاعر العاطفـــي الذي لاتزال ذكرياتـــه تعيش فوقه حية ، بل دافقة بالحياة ، فهـــي جميعا يضمها قلبه ويتســـع لها ، وكأنما قد تلاشـــت بينها المـــسافات ، وذابت الحواجز ، واختفـــت الحدود. (١١)

ومنها ما يتعلق بذكريات الشاعر مع أهله وقومه ، وهي قليلة إذا ما قورنت بذكريات الشاعر مع محبوبته ، ويتسم هذا اللون من الذكريات ، بأنه تمتزج فيه ذكريات الشاعر بالحـــــــــسرة والتوجع على أهله وقومه الذين هلكوا ومضوا لسبيلهم ، وهو قريب من الرثاء وان الشاعر فيـه

يعتصره إحساس مرير بالفقد ، ويمكن أن نلمس مثل هذه الذكريات واضحة في أطلال عبيد بـن الأبرص ، إذ ينفرد هذا الشاعر عن غيره من الشعراء الجاهليين بهذا اللون من الذكريات ، فهو يقف على الأطلال ، لايبكي الحبيبة الراحلة مثلما يفعل غيره من الشعراء الجاهليين ، بل يبكـي أهله وإخوته وأبناء عمومته وقومه ، بقلب تعتصره الحسرات عليهم ، ويقتله إحساس مريـر بالفقد لرحيلهم ، مما يكشف عن قوة آصرة القربى ومتانتها في نفسه ، يقول عبيد بن الأبـرص : (١٢)

أمن منزل عاف ومن رسم أطـلال ... بكيت وهل يبكي من الشوق أمثالـي
ديارهم إذ هم جميعا فأصـبحت ... بسابس إلا الوحش في البلد الخالـي
قليلا بها الأصوات إلا عوازفـا ... عرارا زمارا من غياهب آجـال
فان تك غبراء الخبيبة أصـبحت ... خلت منهم واستبدلت غير أبـدال
بما قد أرى الحي الجميع بغبطـة ... بها والليالي لاتدوم علـى حـال
أبعد بني عمي ورهطي وإخوتـي ... أرجي ليان العيش ضلا بتضـلال
فلست وان أضحوا مضوا لسبيلهـم ... بناسيهم طول الحياة ولا سـالـي

وبالرغم من أن الشاعر في هذه الوقفة الطللية وقد تملّكه الحزن واعتصر قلبه الأسـى والإحساس بالفقد غير أنه يستنكر على نفسه – وقد هاجته المنازل العافية والأطلال الدارسـة - البكاء من شدة الشوق على الأهل والأحبة الذين طواهم الزمن ، ولايرتضي لنفسه مثل هـذه الحال التي تظهره بمظهر الإنسان الضعيف المستسلم للقدر ، وهو الرجل الصلب والجلد فـي المواقف الصعبة .

ومنها مايتعلق بذكريات الشاعر مع أصحابه وندمائه ، فهذا حسان بن ثابت يقف علـى الأطلال فتثير في نفسه ذكرياته التي قضاها في أكناف ملوك آل جفنـة وبين ظهرانيهم ، ومـا يمكن أن نلاحظه في هذا النص أن الشاعر يوجز إيجازا شديدا ، فلايفصح عن طبيعة تجاربـه مع ملوك آل جفنة ويحجم عن ذكر تفاصيلها ، شانه في ذلك شان بقيـة الشعراء الذيـن يقفون على إطلال أحبتهم فلا يفصحون عن طبيعة تجاربهم ، ولا يذكـرون تفاصيلهـا ، كما تقدم الحديث عن ذلك ، يقول حسان بن ثابت : (١٣)

أسالت رسم الدار أم لم تسـأل ... بين الجوابي فالبضيع فحومـل
فالمرج مرج الصفّرين فجاسم ... فديار سلمى درسا لم تحـلل
دمن تعاقبها الريـاح دوارس ... والمدجنات من السماك الأعزل

دار لقوم قد أراهم مـــــــــرة	فوق الأعزة عزهــم أم ينقـــل
لله در عصـــــابة نادمتهـــم	يوما بجلّق في الزمـــــان الأول
....	....
فلبثت أزمانا طوالا فيهــــــم	ثم ادكرت كأننـــي لم أفعـــل

● الذكرى في موقف الرحيل :

ينبغي علينا قبل البدء بدراسة هذا اللون من الذكريات أن ننوه إلى أن هذا الموقـــــف هـــو امتــــــداد لموقف الشاعر في الأطلال ، وبمعنى آخر أن ذكرياته في موقف الرحيـــــل هـــي استرسال لذكرياته في الأطلال وجزء لايتجزأ منها ، لكننا ارتأينا أن نفرد لهذا الموقف عنوانـــا خاصا به وان نفصله عن موقف الأطلال وان كان امتدادا له ، وذلك لغرض تسهيل الدراسة من جانب ، وملاحظتنـــا أن بعض الشعراء(١٤) يتجاوزون مـــــــوقف الإطـــــلال ويـــبدؤون بموقـــــــف الرحيل بالصورة التي تنبئ بانفصال هذا الموقف عن موقف الأطلال ، مما يتيح لنا أن نعـــــده مسوغا لان نفرد له عنوانــــا ودراسة خاصة به من جانب آخر . ويعد موقف الرحيـــــل من المواقف المؤثرة في نفــــــــوس الشعراء الجاهليين ، إذ أن له وقعا شديـــــدا على نفوسهم ، ممـا يبقي بصماته وآثاره مطبوعة ، بـل محفورة على صفحات ذاكرتهم ، والتي لم يستطع الزمــــن بما له من سطوة كبيرة عليهــــم ، أن يمحو ذكريات هذا اليوم ، أو هـــذا الموقف من ذاكرتهــم ، فالشاعر في هذا الموقف حين يقـــــف يستحضر ذكريات حبــــه ، يتأنى عند هذه اللحظـــات القاسية من هذه الذكريات ، لحظات الـــوداع ، ثم ينطلق يعرض لمـا كان من رحيل الأحبة ويتمثل هذه اللمحات من هذا الرحيل ويتابـــع الركب يغور معـــــــــــه وينجد ، ويصعد ويهبط حتـــى ينتهي به شريط ذكرياتـــــه إلى اســـتقرار هذا الـــركـــــب واطمئنانه في موضع من المواضــــع التي احتفظت بها ذاكرته على تقادم السنين والأيام .(١٥)

وتختلف ذكريات الشعراء في هذا الموقف من حيث إيجازها أو متابعة تفاصـــــــيلها ، إذ يتوقـف ذلك على قوة ذاكرة الشاعر ومدى احتفاظها بالتفاصيل المتعلقة بمثل هذا الموقف والتـي تتوقـف بدورها على قوة وقع هذا الموقف على نفسه ، فامرؤ القيس لاتعنيه تفاصيل رحلـــــة محبوبته بقدر مايعنيه موقف الرحيل نفسه الذي يتمثل بمشهد التحمل ووقع هذا المشــــــــهد المؤثرعلى نفســــه ، والذي يبدو معه الشاعر مستغرقا في أجواء نفسية متأزمة لاتـــسمح لــه بملاحقة تفاصيل رحلــــة محبوبته كما هو معروف عند كثير من الشعراء الجاهليــــن ، فهو

يتمثل اثر ذلك اليوم الحزيـــن في نفسه ، فكأنه ناقف حنظل من شدة بكائه و حزنه على فـراق محبوبته ، إذ يقـــــــول :(١٦)

كأني غداة البين يوم ترحـــلوا لدى سمرات الحي ناقف حنظـل
وقوفا بها صحبي عليّ مطيّهم يقولون لاتهلك أسى وتجمـــــل
وان شفائي عبرة أن سفحتهـــا وهل عند رسم دارس من معول

ويبدو أن هذه التجربة المؤلمة ، أو قل هذا الموقف المؤلم والمؤثر في الوقت ذاته ، أثار في نفسه تجارب عاطفية قاسية ومواقف مؤلمة أخرى ، كتجربته مع أم الحويرث وتجربته الأخـرى مع جارتها أم الرباب ، التين عمقتا في نفسه الإحساس الشديد بالألم واللتين وسعتا من جـــروح التجربة السابقة وذلك من خلال ما أفصحت عنه دموعه التي تجاوزت خديه إلى محمله ، يقـول الشاعر : (١٧)

كدأبك من أم الحويرث قبلهـــــا وجارتهـــــا أم الرباب بمأســـل
ففاضت دموع العين مني صبابـة على النحر حتى بل دمعي محملـي

أما طرفة بن العبد ، فلا يبدو أن مشهد الرحيل قد أثار كوامن نفسه ، وحّرك عواطفه وأيقـظ شجونه و ذكرياته مع محبوبته خولة ، إذ يقف على أطلالها ، فهو لم يحدثنا عن اثر هذا الموقف في نفسه ، واكتفى بوصف المركب الذي يحمل محبوبته وتشبيهه بالسفينة العظيمة ، التي تمـيل تارة وتعتدل تارة أخرى ، وعلى هذا نستطيع القول أن الشاعر لم يرعه موقف الرحيل نفســه ، وما ينطوي عليه من حزن ووجد ، بل راعه الشكل الخارجي للهودج الذي حملت فيه محبوبته ، لذلك راح يصفه بالوصف المتقدم ، ونستطيع أن نقول أكثر من ذلك ، وهو أن الشاعر لم ينفعـل بموقف الرحيل الذي يعنى ما يعنى بالنسبة للمحب ، بقدر انفعاله بالمنظر الخارجي للإبل وهـي تحمل هذه الهوادج ، مما يعني أن استجابته في هذا الموقف كانت استجابة فنية أكثر منهـــــا عاطفية ، لذلك لم نلمس الأثر النفسي في هذا الموقف الذى يتطلب من الشاعر فيه أن يعيـــش وضعا نفسيا خاصا ، يستحضر فيه ماضيه ، ويلم شتات ذكرياته التي قضاها مع أحبته ، بالقـدر الذي لمسناه في هذا الوصف الذي استغرق طاقة الشاعر بحيث غطى على البوح بذكرياتـــــه والتنفيس عن عواطفه ، إذ يقول : (١٨)

كأن حدوج المالكيـــــة غدوة خلايا سفين بالنواصـــف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامـن يجور بها الملاح طورا ويهتدي

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليـــد

ونمضى مع بشر بن أبي خازم نتأمل ذكرياته في موقف الرحيل ، ونتأمل أثر هذا الموقـف ووقعه على نفسه ، فبعد أن يحدثنا عن رحيل أحبته ، وان قلبه أصبح رهين هذه الظعـــائن ، إذ يقول :(١٩)

ألا بان الخليط ولم يـــزاروا وقلبك في الظعائن مســـتعار

أسائل ، صاحبي ولقد أرانـي بصيرا بالظعائن حيث صاروا

يطلق العنان لمخيلته برصد حركة هذه الظعائن وملاحقتها ومتابعتها وهي تتنقل من موضـع إلى آخر نهارا وليلا بعدسة الخيال ، وانه قد تجشم العناء والجهد في هذه المتابعة ، إذ يقـــول :

تؤم بها الحداة ميـــاه نخـــل وفيها عن أبانين ازورار

أحاذر أن تبين بنو عقيـــــل بجارتنا ، فقد حق الحذار

فلأيا ما قصرت الطرف عنهم بقانية ، وقد تلع النهـــار

بليل ما أتيـــن علـــى أروم وشابة عن شمائلها تعـار

أراهم كلما بانـــوا تـــــولوا برهن منك ليس له حوار

والواقع أن هذه ((النقلة الخيالية مع الأحبة لاتعبر عن هذا الفيض النفســـي الذي يدفـــع بالشـاعـــر إلى هذه المصاحبة الطويلة البعيدة على حين كان لايزال في مكانه من الأطـــــلال يحدس ويتـفرس وفي مكانه من صاحبه يلتفت إليه ويتكئ عليه ، وإنما تعبر كذلك عن هـــذا الصنيع الفني فـــي التمثل والتخيل ، في استحضـــار الصور من نحو وفي عرضـــها مـــن نحـــو آخر .)) (٢٠)

ولا يقف الشاعر عند هذا الحد من الإفصاح عن ذكرياته ، بل يسترسل في تفاصيلها ، تسعفه في ذلك مخيلة خصبة ، وذاكرة قوية لم ينل منها الزمن ، فيصف جمال النسوة االلاتي تحملنهـا هـذه الظعائن ، ثم يلتفت إلى إحداهن فيخصها بالوصف مظهرا جمالهـا وترفها ، إذ يقـول :

كأن ظباء أسنمة عليهـــــا كوانس قالصا عنها المغـــــار

يفلجن الشفاه عن أقحوان جلاها غب سارية قطـــــار

وفي الإظعان آنسة لعـــوب تيمم أهلهـا بلدا فســـــاروا

من اللاتي غذين بغير بـؤس | منازلها القصـيبـــــة والأوار
غذاها قارص يجري عليهـــا | ومحض حين تنبعث العشــــار
نبيلة موضع الحجلين خـــود | وفي الكشحين والبطن اضطمار
ثقال كلما رامت قيــامـــــا | وفيها حين تنبعث انبهــــــار

ثم يلتفت إلى نفسه ، فيحدثنا عن الأثر النفسي والفراغ العاطفي الذي خلفه في نفسه رحيـــل أحبتـه عنه ، فبدا وقد جفاه النوم ، واستبد به الأرق ، مخمورا من لوعة الفراق ووجده ، فكـــأن الخمـرة قد دبت دبيبا في مفاصله ، لايلوي على شيء سوى انه يرقب النجوم متأملا أن ينكشف هذا الليل الطويل عن صبح يزيح عن كاهله هذه الهموم والأحزان ، ويتجدد فيه الأمل ، وتتبعـث فيه الحياة ، إذ يقول :

فبت مسهدا أرقــا كأنــــــي | تمشّت في مفاصلي العقــــار
أراقب في السماء بنات نعش | وقد دارت كما عطف الصوار
وعاندت الثريا بعد هـــــدء | معاندة لها العيّوق جـــــــار

وبعد أن يتمالك نفسه ويفوق من هذه الصدمة وهذا الجرح الذي خلفه يوم الفراق فـي نفسه ، يقر بالأمر الواقع – واقع الرحيل- وفي محاولة منه لاستعادة توازنه النفسي ورأب الصـــــدع النفسي الذي خلفه هذا الفراق ، يعمد الشاعر إلى سرد بعض ذكرياته وأيام الوصل والأنـــــس التـــي جمعته مع النسوة العقيليات والتي يصفها بأنها أيام قصار لما فيها من متعة وسعـــــادة ، ويستبد بــه التيه والخيلاء فيذكر بعض مغامراته العاطفية معهن ، في محاولة لإثبات ذاته التي يستشعر فيها الانكسار اثر تعرضها لهذا الموقف المؤلم ، إذ يقول :

فان تكن العقيليات شطــــت | بهنّ وبالرهينات الديــــــار
فقد كانت لنا ولهن حتــــــى | زوتنا الحرب أيام قصــــار
ليالي لأطاوع من نهانـــــي | ويضفو تحت كعبـي الإزار
فاعصي عاذلي وأصيب لهـوا | وأوذي في الزيارة من يغـار

ويبدو أن الخوض في هذه المغامرات لم تسعفه ، ولم تطفئ نار الوجد التي اكتوى بهــا ، إذ أخفقت في تخفيف وطأة الفراق على نفسه ، فراح يطلق هذه الصرخة التي انبثقت من أعماقــه ، والتي عبرت عن عمق معاناته النفسية وديمومتها ، إذ يقول :

فيا للنفس للرجل المعنـــــــــى طوال الدهر إذ طال الحصار

وتكشف لفظة (الحصار) عن مدى ما يعانيه الشاعرمن ضيق نفسي خلفه مشـهد الفراق فـي نفسه ، هذا وتختزل هذه الصرخة وهذا الحصار كل ما انطوت عليه تجربته الشعرية من أبعـاد نفسية وفنية ، استطاع الشاعر التعبير عنها وتصويرها بمخيلة الفنان المبدع .

● الذكرى في تجربة الشيخوخة :

الشيخوخة في أبسط توصيف لها ، هي مرحلة من مراحل عمر الإنسان ، تتسـم بالضـعف والعجز ، إذ يبدو فيها الإنسان خائر القوى ، وغير قادر على الفعل ، ومن ثـم غير قادر على تحقيق الذات ، ولهذا نجد الإنسان في هذه المرحلة ، يتشبث بالماضـي ، الذي هو جزء مـن حياته ، ويجتر ذكرياته ، ويستعرض سجل حياته ، ويصبح نهبا لأحلام اليقظة التي لايجـد غيرها ميدانا لتحقيق ذاته ، وتعويض ما فاته ، فنجده غالبا ما يشـيد بالماضي وبما حققه في أيام شبابه ، ولهذا نراه دائما يبكي هذا الشباب الغارب ، الذي كـان فيه أشد قوة وقدرة علـى الفعل . (٢١) وأهم ما يلاحظ في هذه المرحلة ، انصراف المـرأة عن الشاعر وإعراضها عنـه ، وسخريتها منه ، مما يحدث جرحا عميقا في نفسه ، الأمر الذي يؤلمه ، ويزيد في معاناتـه ، ويعمق الشعور بالأسى والحزن في نفسه ، وذلك ما عبر عنه عدد من الشعراء ، يقـول زهير : (٢٢)

وقال العذارى إنما أنت عمنـا وكان الشباب كالخليط نزايلـه
فأصبحت ما يعرفن إلا خليقتي وإلا سواد الرأس والشيب شاملـه

ويقول الأسود بن يعفر : (٢٣)

لما رأت أن شيب المرء شامله بعد الشباب وكان الشيب مسؤوما
صدت وقالت أرى شيبا تفرعه أن الشباب الذي يعلو الجراثيمـا

ويقول الأعشى : (٢٤)

وأنكرتني وما كان الذي نكـرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

ويقول عوف بن عطية : (٢٥)

وقالت كبيشة من جهلهـــا	أشيبا قديما وحلما معــــــــــارا
فما زادني الشيب إلا ندى	إذا استروح المرضعات القتارا

وإحساس الشاعر بازدراء النساء له ، وعدم مقبوليته من قبلهن ، يســــــــلمه إلى لــــون مـــــــن الشعور بالاغتراب عن ذاته ، وعن مجتمعه ، إذ يعيش وحيدا ، منقطعــــا عــــن الناس ، عاجزا عن تحقيق نفسه بينهم ومن خلالهم ، فلم يبق له ما يلوذ به ويتوســــــــل إليــه ســـوى عالـــم الأحلام والذكريات الذي يرتبط من خلاله بواقع غير الواقع الذي يعيش فيــــه وبمثل وقيــم تختلف عن مثل وقيم هذا الواقع.(٢٦)

وعند تأمل ذكريات الشعراء الجاهليين وهم يخوضون تجربة الشيخوخة ، نجدها تنحـــــــو منحيين : فالمنحى الأول ، يتخذ صورة ما يعرف بالفتوة التي كانت شائعة عندهم ، والتــــــي تتخـذ مثالا يتوارد عليه أغلب الشعراء ، ويشمل ، النساء والخمر والميسر وركوب الخطـــر ، كالصيد في الأماكن التي يتحاماها الناس ، وقطع الصحارى المهلكة وما إلى ذالك ، غيـــر أن ما يختلف فيه شاعر عن شاعر آخر ، هو نمط الاهتمام بهذه التجربـــــة أو تلك مـــن تجارب الفتوة ، فنراه يوجز أو يطيل في ذلك كله أو بعضه حسب ما تملي عليه أهـواؤه وميوله ، (٢٧) فالأعشى مثلا ، تستغرق الخمرة ووصف مجالسها وسقاتها وما تبعثه مـن حالة الانتشاء فــــي نفسه ، أغلب ذكرياته ، فهو يفصل فيها تفصيلا ينبئ عن شغفه بهــــا ، وحبه لها ، واهتمامــه فيها ، في حين لاتشكل بقية التجارب الأخرى – باستثنــاء بعـــض تجاربه مع المرأة - مـــن اهتماماته وذكرياته إلا النزر القليل فنجده يوجز فيها إيجازا يكشف عن أن هذه التجــــــــارب لاتحظى باهتمامه إلا بالقدر الذي يحقق فيه ذاته ، ويســـتكمل فيه مقومات رجولته ، فالشاعـــر بعد أن يوجه خطابه إلى إحدى محبوباته ، يتحسر فيــــــه بمرارة وحزن بالغين ، على ما أحله الشيب في نفسه من هموم وأحزان ، وما تبعـــه مـــن تبدل حاله بعد تلك الأيام والليالي الجميلة والذكريات السعيدة التي قضاها بصحبة محبوبته ، وهو في عنفوان شبابه ، إذ يقول : (٢٨)

وان أخاك الذي تعلمـين	لياليــــنا إذ نحـل الجــــــفارا
تبدل بعد الصبى حكمة	وقنعه الشــيب منـــه خمـــارا
أحـل به الشـــيب أثقاله	وما اعتره الشيب إلا اعترارا
فإما تريـنـــي علـــى الـــة	قليت الصبى وهجرت التجارا

فهو يحاول أن يستحضر ماضيه الذي ينطوي على ذكرياته السعيدة ، ويعيش أحلام اليقظة التي تبعث الأمل والحياة في نفسه ، وتجعله يمني النفس بأنه أمضى عزيمة على الفعل ، وأكثر قدرة على إثبات الذات ، إذ يقول :

فقد أخرج الكاعب المسترا ة من خدرها وأشيع القمـــارا
وذات نواف كلون الفصـــو ص باكرتـها فادمجت ابتكارا
غدوت عليها قبيل الشـرو ق إما نقالا واماغتمـــارا
يعاصي العواذل طلق اليدين يروي العفاة ويرخـي الازارا
فلم ينطق الديك حتى مـلأ ت كوب الرباب له فاسـتدارا
إذا انكب أزهر بين السقاة تراموا به غربا أو نضـــارا

وواضح أن ذكرياته في الخمرة قد استغرقت معظم النص ، في حين أن ذكـرياتـــــــــه الأخرى لم تستغرق إلا بيتا واحدا فقط .

أما الأسود بن يعفر ، فبعد أن يوجه خطابه إلى المرأة ، وهو يخوض تجربة الشيخوخة معلنا تذمره واستياءه من الوضع المزري الذي هو فيه ، من فقدان البصر ، ونحول البـدن ، ومـــــا اعتراه من تحول في نفسيته ، تمثل في عصيانه ورفضه الانصياع إلى نداء الهـوى وغوايـــة أصحاب الصبابة ، كما تمثل في رضوخه للأصوات التي تعذله وتحاول أن تكبح جمـــــــاح صبوته ، إذ يقول :(٢٩)

إما تريـنـــي قد بليت وغاضنـــــي ما نيل من بصري ومن أجلادي
وعصيت أصحاب الصبابة والصبـا وأطعت عاذلتي ولان قيـــادي

يحاول أن يستحضر ذكرياته في سني شبابه وما انطوت عليه من متع متنوعـــة ظـــلت عالقة في ذاكرته ، إذ يبدؤها بمتعة الخمر ، آخذا بوصفها ووصف ساقيها إذ يقـــــــــول :

ولقد أروح على التـجار مرجـــلا مذلا بمالـــي لينـا أجيـــادي
ولقد لهوت وللشـــباب لـــــذاذة بسلافة مزجت بمـــاء غوادي
من خمر ذي نطف أغن منطّـــق وافى بها لدراهم الأســـــجاد
يسعى بها ذو تومتين مشـــــمر قنأت أناملـه من الفرصـــــاد

ثم يسترسل فينتقل في ذكرياته ، إلى وصف النساء ، فيصف جمالهن ، وما له مـن ســحر وتأثير على قلوب الناظرين ، ثم يلتفت إلى جمال منطقهن ، وحسن حديثهـــن ، إذ يقـــول :

والبيض تمشـــي كالبدور وكالدمـــى ونواعم يمشـــين بالأرفـــاد
والبيض يرميـــن القلوب كأنهـــا أدحي بين صريمـــة وجمـــاد
ينطقن معروفـــا وهن نواعـــــم بيض الوجوه رقيقـــة الأكباد
ينطقن مخفوض الحديث تهامســـا فبلغن ما حاولن غير تنـــادي

وينتهي الشاعر بذكرياته إلى تجاربه في الصيد وركوب المخاطر ، بعد أن اطمأن إلـــى أن هذه الذكريات قد أعادت إليه توازنه النفسي وحققت ما يصبو إليه وهو يخوض تجربـــــــــة الشيخوخة وما يصاحبها من معاناة نفسية مريرة من اطمئنان نفسي هو أحوج إليه في هـــــذه المرحلة من عمره ، ومن ثقة بالنفس وقدرة على تحقيق ذاته ، مما يعينه على مواصـــــــــلة الحياة ، وتحمل أعبائها ، وكسر طوق العزلة والاغتراب الذي تفرضه عليه هذه المرحلـــة ، إذ يقول :

ولقد غدوت لعـــــازب متنـــــــاذر   أحوى المـــذانب مؤنـــق الرواد

جادت سواريــــــه وآزر نبتــــــه   نفأ من الصـــــــفراء والزبــــاد

....

بمشــــمر عند جهـيـــز شـــــده   قيد الأوابد والرهـــــان جـــواد

أما المنحى الثاني ، فانه يتخذ صورة المغامرات العاطفية والحكايات الغرامية ، إذ يتعـرض الشاعر الجاهلي في بعض الأحيان وهو يقيم حوارا جدليا مع المرأة التي غالبا ما تكون إمـــــا حبيبته ، أو زوجته إلى سخرية هذه المرأة واستهزائها بكبره وعجزه الذين يمثل الشيب أهــــم علامة دالة عليهما ، هذه السخرية التي يعدها الشاعر الجاهلي طعنا برجولته ومساسا بكرامتـه ، الأمر الذي يرفضه بقوة وعنف لما عرف عنه من إباء وعزة نفس وفتوة ، وفي محاولة منــه لإثبات رجولته ودحض افتراءات هذه المرأة وادعاءاتها ، يلجأ إلى الماضي ليجعل منه متكـــأ ونقطة انطلاق للرد عليها ، إذ يحاول أن يستعرض كل ما أسعفته به ذاكرته وما اتسع له خيالــه الشعري ، من ذكريات يصوغها الشاعر بصورة مغامرات عاطفية ، وحكايات غراميــــة ، إذ يوشّحها بوشاح الفن ، ويهيئ لها من عناصر الفن القصصي من حوار وشخوص وحوادث ، مـا يخيّل للمتلقي ويوهمه بواقعيتها ، ويمكن أن نتأمل ذلك في الموقف الذي تعرض له امرؤ القـيس في جدله مع بسباسة ، إذ حاولت أن تطعنه في رجولته ، وان تمس كبرياءه ، الأمر الذي جعلــه يرد عليها ردا عنيفا ، متهما إياها بالكذب ، إذ يقول : (٣٠)

ألا زعمت بسباســــة اليوم إنني   كبرت وألا يحسن اللهو أمثالـــي

كذبت ، لقد أصبي على المرء عرسه   وأمنع عرسي أن يزن به الخالـي

ومن ثم راح يستعرض ذكرياته التي صاغها بصورة مغامرات عاطفية ، وحكايات غراميـة ، في محاولة منه لإثبات وجوده ورجولته ، إذ يقول :

ويا رب يوم قد لهوت وليلــــة   بآنسة كأنهـــا خط تمثــــــــال

....

تنوّرتها من أذرعـــات وأهلهـــا بيثرب أدنى دارها نظر عـــــال

نظرت إليها والنجـــوم كأنهـــا مصابيح رهبان تشب لقفّـــــال

سموت إليها بعد ما نـــام أهلهـــا سمو حباب الماء حالا على حـــال

فقالت سباك الله انك فاضـــحـــي ألست ترى السمار والناس أحوالـي

فقلت يمين الله أبرح قاعـــــدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالـي

حلفت لها بالله حلفة فاجـــــر لناموا فما أن من حديث ولا صـال

فلما تنازعنا الحديث وأسمحـــت هصرت بغصن ذي شماريخ ميـال

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامـنا ورضت فذلت صـــعبة أي إذلال

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلهـــا عليه القتام سيئ الظن والبـــال

يغط غطيط البكر شد خناقـــــه ليقتلني والمرء ليس بقتـــــال

أيقتلني والمشرفي مضاجعـــــي ومسنونة زرق كأنياب أغـــول

وليس بذي رمح فيطعننـــي بـــه وليس بذي سيف وليس بنبـــال

أيقتلني وقد شغفت فؤادهـــــا كما شغف المهنوءة الطالـــــي

وقد علمت سلمى وان كان بعلهـــا بأن الفتى يهذي وليس بفعـــال

كما يمكننا أن نتأمل ذلك أيضا في الموقف الذي تعرض له عبيد بن الأبرص في جدله مـــع زوجه ، التي حاولت أن تمس كبرياءه ، وان تطعنه في صميم رجولته وذلك من خلال وصمـه بالضعف البدني والضعف الاجتماعي - أن صح التعبير – والعجز وعدم القدرة على مواتـــاة النساء ، إذ يقول : (٣١)

زعمت أنني كبـرت وأننـــي قل مالي وضن عني الموالـي

وصحا باطلي وأصبحت كهلا لا يواتي أمثالها أمثالـــــي

لذلك نراه يستعين بذكرياته التي تتخذ صورة المغامرات العاطفية ، والحكايات الغرامية التـي يوشّحها بوشاح الفن ، إذ يضفي عليها لونا من الحوار البسيط مما يوهم بواقعيتها ، للرد علـــى زوجه وإفحامها ، ومن ثم استعادة توازنه ، واثبات رجولته ، إذ يقول :

أن رأتني تغير اللون مني وعلا الشيب مفرقي وقذالـي

فبما أدخل الخباء على مه ضومة الكشح طفلة كالغزال

فتعاطيت جيدها ثم مالـت ميلان الكثيب بين الرمـــال
ثم قالت فدى لنفسك نفسي وفداء لمال أهلك مـــالـــي
....
ذاك عيش رضيته وتولى كل عيش مصيره لهبـــال

● الذكرى في موقف الحزن والإحساس بالفقد :

يقع الشاعر الجاهلي في أحيان كثيرة تحت وطأة الشعور بالحزن ، والإحساس بالفقد ، إذ أن الواقع الذي يعيشه هذا الشاعر يرشح إلى تفاقم مثل هذه الأحاسيس ، فهو واقع يحكمه مبدأ القوة وقانون الحرب ، وتعبث بمقدراته البشريـــــــــة والاقتصادية الصراعات والحـروب ممـا ينتج عنها المزيد من القتلى والجرحـــــى والأسرى ، الأمر الذي يثقل كاهل الإنسان الجاهلي ، ويجعله أسيرا للحـــــزن ، والإحساس بالفقد ، لذلك يلجأ الشاعر إلى الذكـــــــرى كوسيـلة نفسية فاعلة للتخفيـــف من وطأة هذه الأحاسيس على نفسه .

وتتلون ذكريات الشعراء الجاهليين في مواقف الحزن هذه ، فعبيد بن الأبرص يدفعـــــــه الحـــــزن والإحساس بالفقد الشديدين إلى تذكر أهله وقومه ، فيتذكر ما كانوا يتمتعون به مـــن خصال رفيعة ، ومثل إنسانية سامية ، ومنزلة اجتماعية مرموقـة ، وفروسيـــة مشـــــهودة ، فيستحيل هذا الحزن الشديد إلى بكاء حار لاتجف مدامعـــــــــه ، إذ يقـــــــــول : (٣٢)

تذكرت أهلي الصالحين بملحـوب فقلبـــي عليهم هالك جد مغلـــوب
تذكرت أهل الخير والباع والنـدى وأهل عتاق الجرد والبر والطـيب
تذكرتهم ما إن تجف مدامعـــــي كأن جدول يسقي مزارع مخروب

ثم يحاول الشاعر أن يتجاوز هذا الموقف المؤثر ، وان يخفف من وطأة هذه الأحاسيـــــس على نفسه ، فيلجأ إلى الاستعانة بذكرياته التي تدور حول معاني (الفتوة) التي يتحـــــسر علـــى ذهابهـا بذهاب قومه ، وما كانوا يتمتعون به من عز ووجاهة وسلطـــــــــان ، إذ يقـــــول :

وبيت يفوح المسك من حجراتـــــه تسدّيته من بين سر ومخطـــــوب
ومسمعة قد أصحل الشرب صوتـها تأوّى إلى أوتار أجوف محـــــنوب
شـــهدت بفتيـــان كرام عليـــهم حباء لمن ينتابهم غير محجـــوب

وخرق من الفتيان أكرم مصـــــدقا من السيف قد آخيت ليس بمـذروب
فأصبح مني كل ذلك قد مضـــــى فأي فتى في الناس ليس بمكــذوب

ومما يمكن أن نستشفه من هذا الربط الذي عمد إليه الشاعر بين إبراز مايتمتع به قومــه من عز ومجد وسؤدد وشرف رفيع ، وبين ذكرياته التي تدور حول معاني الفتوة ، هو أن الشاعــر يــرى أن ما كان يتمتع به من الفتوة في أيام شبابه ، التي تعني فيما تعني ، القدرة على الفعـل ، والتــي يفتخر بها ، مستمدة مما كان عليه قومه من مكانة اجتماعية رفيعة ومن مجد مؤثّــل ، ومن ثــم كان يرى أن وجوده مستمد من وجودهم ، من هنا نجد أن هذا الإحساس بالفقد لــدى الشــاعر قد ولد عنده فراغا نفسيا لايستطيع املاءه إلا بالذكريات التي تعيد له توازنه النفســي الذي فقــــده بضغط هذا الإحساس بالفقد ، وتبعث في نفسه الأمل والرغبة في الحيــــاة من خلال التمتع بهــذه الذكريات والتلذذ بسردها .

أما النابغة الجعدي ، فيلم به الحزن الشديد فيدفعه إلى تصفح ذاكرته ، لعله يجد فيها شيئــا يخفف به من وطأة هذا الحزن الشديد الذي يعتصر قلبه ، فيبدو أن ذاكرتــــه لم تزل تحتفــظ بذكرياته التي جمعته مع أصدقائه وأصحابه ، من الكـهول والشبان الذين نادمهم في كنف أحــد ملوك المناذرة ، وهو المنذر بن محرق (٣٣) ، فيصف مـا كان يدور بينهم من متع الحيــاة في أروقة قصور هؤلاء الملوك ومن مظاهر الترف واللهو التــي تتمثل باحتساء الخمرة العراقيــة الفاخرة ، وتناول الطعام المشوي ، ولبس الثياب اليمنية المطرزة الفاخرة ، والتعطر بعطــور دارين الشديدة الرائحة ، إذ يقول : (٣٤)

فأصبح قلبي قد صــحا غير أنــه وكل امرئ لاق من الدهر قنطــرا
تذكر شيئا قد مضى لســبيلــه ومن حاجة المحـزون أن يتذكــرا
نداماي عند المنذر بن محــرق أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا
كهولا وشبانا كأن وجوههــم دنانير مما شيف في أرض قيصــرا
وما زلت أسعـى بين بـاب ودارة بنجران حتى خفت أن أتنصّــرا
إذا ملك من آل جفنــة خالــه وأعمامه من آل امرئ القيس أزهرا
يرد علينا كأســه وشــواءه مناصــفة والشرعبــيّ المحبّـرا
وراحا عراقيــا وريطا يمانيــا ومعتبطا من مســك دارين أذفــرا
أولئك أخدانــي مضوا لســبيلهم وأصبحت أرجو بعدهم أن أعمــرا
وما عمــري إلا كدعــوة فارط دعــا راعيــا ثم اســتمر فأدبــرا

ومما يلاحظ هنا أن ذكريات الشاعر يشوبها إحساس مرير بالتحسر ، مما جعله يتمنى بعدهم عمرا مديدا ، ولكن هيهات منه ذلك ، لأنه يدرك انه سيلحق بهم طال الزمن أم قصر ، وهو ما أشار إليه في البيت الأخير .

• الذكرى في الطيف :

لاتقتصر ذكريات الشعراء وتجاربهم التي جمعتهم مع محبوباتهم ، وأحبتهم من الأهل والأصدقاء والأصحاب والندماء ، على ما تقدم من مواقف وتجارب ، بل امتدت لتشمل تجاربهم في الطيف ، لاسيما ذكرياتهم وتجاربهم مع المرأة (الحبيبة) ، التي تشكل مع الشاعر فيها ثنائيا فاعلا يسهم في تشكيل الأبعاد النفسية والجمالية للتجربة الشعرية ، (٣٥) وتتباين ذكريات الشعراء في تجربة الطيف ، من حيث الإيجاز والتفصيل ، فمنهم من يوجز في ذكرياته ، ومنهم من يطيل فيها ، ويبدو أن السبب يكمن ، في التجربة الشعرية ذاتها وما تتطلبه مقتضياتها ودواعيها الانفعالية من إيجاز في هذه التجربة ، أو إطالة في تلك ، هذا من جانب ، ومدى قدرة ذاكرة الشاعر على الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من التفاصيل والجزئيات ، التي تسعفه في لملمة شتات هذه التجربة وتنسيقها ومن ثم عرضها بالصورة التي تلبي ما يرغب في تحقيقه نفسيا وفنيا من جانب آخر ، فلنتأمل خفاف بن ندبة وهو يخوض تجربته في الطيف مع محبوبته أسماء ، فبعد أن يحدد الأماكن التي قطعتها أسماء وصولا إليه تحديدا دقيقا ، ويصف حسنها وجمالها ، إذ يقول : (٣٦)

ألا طرقت أسماء في غر مطرق	وأنى إذا حلت بنجران نلتقي
سرت كل واد دون رهوة دافع	وجلذان أو كرم بلية محدق
تجاوزت الأعراض حتى توسّنت	وسادي بباب دون جلذان مغلق
بغر الثنايا خيف الظلم نبته	وسنة رئم بالجنينة مونق

نراه يبدأ بالحديث عن ذكرياته معها حديثا يغلب عليه طابع الإيجاز ، فهو لا يفصح عن تفاصيلها ، سوى إفصاحه عن انه تعلل برؤيتها في زمن حدده بساعة ، وإفصاحه عن زمان التفرق ، الذي حدده بالمحاق وهو آخر يوم من أيام الإقامة في الحج ومكانه ، الذي حدده بوجّ وهو وادي في الطائف ، إذ يقول :

ولم أرها إلا تعلة ساعة	على ساجر أو نظرة بالمشرق

وحيث الجميع الحابسون براكس وكان المحاق موعدا للتفـــرق

بوجّ وما بالي بوجّ وبالـــــــها ومن يلق يوما جدة الحب يخلق

أما إذا ما تأملنا تجربة تميم بن أبي بن مقبل في الطيف فسنجد أنها تجربة وافية ، يغلـــب عليها الطابع التفصيلي ، وتنم عن قدرة فنية رفيعة المستوى ، وتكشف عن مخيلة شعرية بعيدة الأفق ، إذ استطاع الشاعر أن يطلعنا على تفاصيل ذكرياته فـي تلك الليلة الحلمية التي قضاهـا بصحبة محبوبته كبيشة في تلك الديّرة المضـــيئة ، حيث الانتشـــاء بالخمـرة المعتقـة ، والاستمتاع بالغناء الساحر ، والتي تمنى الشاعر لو أن كل الليالي تكون كهذه الليلة في متعتهـا ولذتها ، والتي تتميز عن غيرها من الليالـــي بأنها ليلة هانئة سعيدة قد حالفها السعد ، في حين أن غيرها قد رافقتها النحـــوس ، والتي يبكي غيره تحسرا وشوقا على الاستمتاع بمثلهـــا واقتناص لذاتها ، إذ يقول : (٣٧)

ليت الليالـــي يا كبيشـــة لم تكن إلا كليلتنـــا بخبت طحـــــال

في ليلة جرت النحوس بغـــيرهـا يبكي على أمثالها أمثالـــــي

بتنا بديّرة يضيء وجوهـــــنا دسم السليط على فتيل ذبـّـــال

حتى انتشينا عند أدكن متـــــرع جحل أمر كراعه بعقـــــال

مما تعتق في الدنان كأنهـــــا بشفاه ناطلهـــا ذبيح غـــزال

وغناء مسمعة جررت لصوتهـــا ثوبـــي ، ولذة شارب وفضـــال

صدحت لنا جيداء تركض ساقهـــا عند الشروب مجامع الخلخـــال

فضلا تنازعها المحابض صوتهـــا بأجش لا قطع ولا مصـــــحال

فإذا وذلك يا كبيشـــة لم يكـــن إلا كحلمـــة حالم بخيـــــال

طرقت كبيشة والركاب مناخـــــة ملقـــى أزمتها ببطـــن الإل

وهكذا يتضح لنا مما تقدم أن الشاعر الجاهلي قد أعطانا صورة – وافية في بعـــض الأحيان وموجزة في أحيان أخرى ، إذ يرتبط ذلك بالحالة النفسية للشاعر - عن ذكرياتـــــه مـــــع محبوبته تارة وأهله وقومه تارة أخرى وأصحابه وندمائه تارة ثالثة وذلك من خلال تجاربه فـي المواقف التي استحضر فيها ذكرياته كموقف الأطلال وموقف الرحيل وموقـــف الشيخوخـــــة وموقف الحزن والإحساس بالفقد وموقف الطيف .

الخاتمة

وفي الختام يمكن إجمال نتائج البحث في النقـــــاط الآتية :

- إن الشاعر الجاهلي قد اتخذ من الذكرى جسرا فنيا حاول من خلاله – موظفا لهـــــــذا الغرض كل ما يملك من طاقات فنية - أن يصل ما ضيه الذي يتمثل بذكرياته وتجاربـه في الحياة بكافة أبعادها العاطفية والفنية والاجتماعية والوجودية ، بحاضره ومستقبلـه .
- إن الذكرى كانت تمثل للشاعر الجاهلي قاعدة رصينة لانطلاقه نحو الحياة والتشبث بها ، والاستمتاع بملذاتها .
- اتخذ الشاعر الجاهلي من الذكرى وسيلة فاعلة لمواجهة قهر الزمان من جهـــــــــة ، ومواجهة الواقع – بكل تناقضاته وافرازاته – الذي يعيشه من جهة أخرى .
- إن الذكرى كانت تمثل للشاعر الجاهلي رافدا ثرا وينبوعا معطاء ، استطاع الشاعر من خلاله أن يغذي تجاربه الشعرية ، ويثريها بمقومات الإبداع الشعري .
- استطاع البحث أن يبين أن الشاعر الجاهلي يمتلك ذاكرة قوية قادرة على لملمـــة كـــل شتات ذكرياته وحيثياتها والاحتفاظ بها ، ومن ثم تنسيقها وعرضها بالصورة التي تنبـئ عن امتلاكه زمام الإبداع الشعري ومقوماته الأصيلة .
- استطاع البحث أن يبين أن الشاعر الجاهلي كان بعيد الأفق وكان ذا خيال واســـــــع ، استطاع أن يسبغ على ذكرياته وتجاربه مسحة منه وتلوينا أخرج هذه الذكريـــــــات مخرجا فنيا لائقا .

الهوامش

١- ينظر: الشعر الجاهلي/ خصائصه وفنونه: د. يحيى الجبوري: ص٢٤٥
٢- ينظر: نفسه: ٢٥٠
٣- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: د. شكري فيصل:ص١٢٦
٤- ديوانه : ص٨ ،
٥- من الجدير في هذا المقام أن نشير إلى بعض الآراء الوجيهة في تفسير هذه الوقفة الطللية ، فمثلا يرى الدكتور محمود عبد الله الجادر أن الشاعر لايبكي المرأة الحبيبة ولا يدعو صاحبين حقيقيين وإنما يبكي على مملكة كندة ويدعو قبيلتي كندة وحمير للبكاء معه على مملكة أبيه المنهارة ليكون هذا البكاء حافزا له على الثأر واسترداد الملك الضائع . ينظر : قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري : ١٨ ، كما يرى الدكتور وهب رومية أن الشاعر في مخاطبته لصاحبيه واستيقافه لهما ، إنما يخاطب المجتمع الإنساني بأسره ويستوقفه ويحضه على البكاء ، وهو حين يبكي الحبيب ، إنما يبكي الإنسان والوجود الإنساني في ضعفه وانكساره وتلاشيه . ينظر : شعرنا القديم والنقد الجديد : ٢٣٠
٦- ينظر : دراسات في الشعر الجاهلي : د. يوسف خليف ، ص١٢٧
٧- ينظر : جدلية القيم في الشعر الجاهلي : د. بو جمعة بو بعيو : ص٤١
٨- شرح المعلقات السبع : الزوزني : ص١٦٧ ، ولمزيد من الاطلاع ينظر: ديوان امرئ القيس : ص ٢٧، ص ٧٨، ص ٨٥، ص ٨٩، شرح اختيارات المفضل: ج٢: ص٨٣٠، ص١٠٠٠، ديوان ابن مقبل: ص٢٩٥،ص٢١٦، ص١٢٣، ص٤١ ديوان الأعشى: ص٣، ديوان بشر بن أبي خازم: ص٢٠٨ ، قصائد جاهلية نادرة ، ص٢٠٠،ص١٢
٩- جدلية القيم في الشعر الجاهلي : ص٤٩
١٠- ينظر : نفسه : ص٤٩
١١- ينظر : دراسات في الشعر الجاهلي : ص١٢٨
١٢- ديوانه : ص١٢٨ ، وينظر : ديوانه : ص١٣٢ ، ص٩٧
١٣- شرح ديوانه : ص ٣٦٣
١٤- ينظر مثلا : مطلع معلقة الأعشى إذ ابتدأها بموقف الرحيل أو الوداع ، إذ يقول : ودع هريرة أن الركب مرتحل فهل تطيق وداعا أيها الرجل الديوان : ص٥٥ ، ومطلع قصيدة علقمة بن عبدة المفضلية :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

شرح اختيارات المفضل : ج ٢: ص١٦٠٠
ومطلع قصيدة بشر بن أبي خازم :

ألا بان الخليط ولم يزاروا وقلبك في الظعائن مستعار

الديوان : ص ٩٠
١٥- ينظر : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : ص١٢٤
١٦- ديوانه : ص٩
١٧- نفسه : ص٩

١٨- ديوانه : ص٧ .
١٩- ديوانه : ص٩٠ .
٢٠- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : ص١٣٣ .
٢١- ينظر : الأدب الجاهلي/ قضايا وفنون ونصوص : د. ص٣٤٥ .
٢٢- شرح ديوانه : ص١٢٥ .
٢٣- ديوانه : ص٥٩ .
٢٤- ديوانه : ص١٠١ .
٢٥- شرح اختيارات المفضل : ج٢ ص١٦٥٧
٢٦- ينظر : الأدب الجاهلي / قضايا وفنون ونصوص : ٣٥٨
٢٧- ينظر : الحياة والموت في الشعر الجاهلي : د . مصطفى عبد اللطيف جياوؤك : ١٩٨
٢٨- ديوانه : ص٤٥
٢٩- ديوانه : ٢٨ ، وينظر : قصيدته البائية : ٢١
٣٠- ديوانه : ٢٨
٣١- ديوانه : ١٠٩
٣٢- ديوانه : ٩٧ ، وينظر : قصيدة أبي دؤاد الأصمعية ، ٢٠٦
٣٣- المنذر : هو ابن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر اللخمي ، وعمرو بن عدي هو ابن أخت جذيمة بن مالك الأبرش ، وقيل له الأبرش والوضاح لبرص فيه .
محرق : لقب امرئ القيس أبي المنذر لقب به لأنه أحرق من بني دارم ثمانية وتسعين رجلا ثم أكملهم برجل من البراجم وامرأة من بني نهشل . (ديوان الأصمعيات : الهامش : ص٥٧)
٣٤- ديوانه : ٥٧
٣٥- ينظر : تنوع الخطاب الشعري الجاهلي ، نجاح مهدي علوان ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ٢٠٠٨: ٧٥
٣٦- شعره : ٢٧، وينظر : ديوان الأصمعيات : ٢٤
٣٧- ديوانه : ٢٥٧، وينظر : ديوانه : ١، ديوان المرقشين : ٥١

مصادر البحث ومراجعه

- الأدب الجاهلي / قضايا وفنون ونصوص : د . حسني عبد الجليل يوسف ، ط٢، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ٢٠٠٣.
- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، د. شكري فيصل ، ط٤، دار العلم للملايين ، بيروت .
- تنوع الخطاب الشعري الجاهلي : نجاح مهدي علوان ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ٢٠٠٨.
- جدلية القيم في الشعر الجاهلي ، د : بو جمعة بو بعيو ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١.
- الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، د : مصطفى عبد اللطيف جياوؤك ، وزارة الإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٧.
- دراسات في الشعر الجاهلي ، د : يوسف خليف ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .
- ديوان الأسود بن يعفر ، صنعة : نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والإعلام .
- ديوان الأصمعيات ، ت : د . محمد نبيل طريفي ، ط١، دار صادر ، بيروت ، ٢٠٠٢.
- ديوان الأعشى ، ت : د . م . محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميزت .
- ديوان امرئ القيس ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣ ، دار المعارف بمصر .
- ديوان بشر بن أبي خازم ، تقديم وشرح : د . صلاح الدين الهواري ، ط١ ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٧.
- ديوان تميم بن أبي بن مقبل ، ت : د . عزة حسن ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٢ .
- ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنتمري ، ت : درية الخطيب ، لطفي الصقّال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق .
- ديوان عبيد بن الأبرص ، ت : د . محمد علي دقة ، ط١، دار صادر ، بيروت ، ٢٠٠٣.
- ديوان المرقشين ، ت : كارين صادر ، ط١، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٨.
- ديوان النابغة الجعدي ، ت : د . واضح الصمد ، ط١، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٨
- شرح اختيارات المفضل ، الخطيب التبريزي ، ت : د . فخر الدين قباوة ، ط٣ ، دار الفكر المعاصر ، دمشق ، ٢٠٠٢ .
- شرح المعلقات السبع ، أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٩.
- شرح ديوان حسان بن ثابت ، ضبط وتصحيح : عبد الرحمن البرقوقي ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة : أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، نسخة مصورة عن دار الكتب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤.

- الشعر الجاهلي /خصائصه وفنونه ، د . يحيى الجبوري ، ط٤، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣.
- شعر خفاف بن ندبة السلمي ، ت : د . نوري حمودي القيسي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٧.
- شعرنا القديم والنقد الجديد : د . وهب أحمد رومية ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٦ .
- قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري : د . محمود عبد الله الجادر ، دار الشؤون الثقافية العامة . بغداد ، ٢٠٠٢ .
- قصائد جاهلية نادرة ، د . يحيى الجبوري ، ط٢، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٨.